مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجزء الأول

دار الحكمة

Bibliotheca Alexandrina
0013755

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عـلي الشـرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفـر بن محمـد حسن بن أحمد بن مـوسى بن راشـد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ ـ ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعـرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقـان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضـاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريـزاً، وقال الشعـر صغيراً وجوّده شـاباً. وكـان من الشباب الـواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحـلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكـانت لأمّه جـارة من آل الفحّـام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدبـاء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمـة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكـان الكثير من ناشئـة النجف يتأدبّون عليهما. وكـان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبـذل عليه أمـوالاً طائلة، ومـوقعه في محلـة العمارة تحت الطاق المعـروف بطاق الدرويش. لقـد أودعت المعلمة الوليـد عند أخويها، ولما أتقن الكتـابة تقدم للـدراسة العلمية. وكان يلبس البـزّة العربية الشائعة كوفية وعقـالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامـة. وكان من عادتـه أن يلف العمامة للشيخ الجديـد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفّية» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خـاصّ، إنما هو اسلوب الفكـر القديم طبعته الكوفـة بطابعها: طـابعه الآداب العربية والعلـوم الإسلامية، وكانت على الأخـص مدرسة علويـة أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه...»

ويقول بعـد ذلك: «أما طـريقة التـدريس في النجف فقديمـة تتردّد بين الطريقتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليونانيّتين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقه والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركزّ وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

***

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران.

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلجأ إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجاز سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفا ... علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينه وزيراً بلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤. واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨. وقد استمّر عضواً بمجلس الأعيان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجدّد تسميته عيناً في شهر تشرين الثاني من نفس السنة إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكرى السعدون (١٩٢٩) الأحلام (١٩٦٣) العرب والعراق (١٩٦٣). وقد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التاريخية (في مجلة الاعتدال النجفية) والأحلام والأندية العراقية (في جريدة العراق) ونكت القلم الخ..

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضاء ورجل سياسة، لكنه لم يكن طوال حياته الا شاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طائفة من شعره في ديوانه الموسوم بـ «عواطف وعواصف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جاز أن تحمل الفاكهة إلى بستانها فإني أحمل اليكم هذا الأثر، مع إخلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أما الشعر فسحر وعطر. وهو شعر نابض بالحياة، صادق اللهجة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر ما عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر ما أفصح عن حبّ المغرم وبهجة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعة الفلاح في كوخه، وترجمتم عن نزعات الشعب المتطلّع إلى الحياة والحرية، ودعوتم إلى الألفة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلّاحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطّلات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة ... لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً ... هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها ... صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلة الأغصان تحسب أنها ... من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة ... ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه ... جري النسيم وكفّ منه الضّافي....
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر ... متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة ... سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنّى لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً ... كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى ... فصاح: لا... كفيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر ... رددّت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى ... قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمعة العرس، ما أجدتِ التأسّي ... أنت مشبوبة ويُطفأ عرسي
أنت مثلي مشعولة القلب، لكن ... من سناك المشؤوم ظلمة نفسي
يا رعى الله للزفاف شموعاً ... يتهافتن حول نعش ورمس
عاكست حظّها الليالي فذابت ... خجلاً ترسل الدموع بهمس
هكذا ذاب باحتراقٍ فؤادي، ... هكذا سورة الدموع برأسي
جلوة أم مناحة لنجوم ... يتناثرن بين سعد ونحس
كان حدسي تذكو الأماني شموعاً ... والليالي خيبّن ظنّي وحدسي

انّ العروس الشابّة التي قضت نحبها ليلة الزفاف لتذكرنا بقصيدة الشاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمة، فهبّت ريح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحر دامعة العين من كهفها السحيق، وحفظت جسمها من أنياب الوحوش الضارية، وأمرت قيان الماء فأخذنها إلى الساحل واستدعين غيد المروج والمنابع والجبال، فأقمن لها مناحة لم تشهد الأرض مثلها. وقلن لها نادبات: «أسفاً عليك، أيتها العروس، لم تبلغي دار الحبيب ولم ترتدي ثياب العرس، وحلى الذهب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشاعر الشرقي فيخاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبل المعلّق في السجّن ... سلام، وهكذا لي روح
إن تكن ذكرياتك الورد والأطيار ... تشدو فذكرياتي جروح
كلَّ يوم يلوح فجر لعينيك ... فهلاّ يوماً لعيني يلوح؟..

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشاعران في قفص السّجن ... فلم يعبآ بحبس وضيق
يرسلان الألحان للملأ الخابط ... تيهاً في عالم مصعوق
فكأنّ الأسير غير أسير ... وكأن الطليق غير طليق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بدّ للقارىء من إمعان الفكر في خفايا السطور ليستشفّ معاني بعيدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شاعرنا ليكثر من الصور والاستعارات والتشابيه والكنايات، أليس هو القائل:

أنا أصدح باللفظ لمن في صدره المعنى

والقائل: ثوب الصداقة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الذي أسّسوه له ألف باب، واليوم المضرّج بحر هائج والغد المؤمّل في ساحل الأمان، والمرآة لا تفيد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟ ، وأية خميرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول:

هذي الصدور مواقد خمدت فبثّت بالدخان

ويقول:

إنّا، ولا غَزْل لنا، نحسن فتل المغزل

ويقول:

من وراء المرآة صوت يناغي ببّغاءً توحي عن المرآة

ويقول:

جسدي قارب وقلبي شراع وحياتي حبل وعقلي نوتي

ويقول:

بعض القلوب طيور لم تستطع أن تطيرا

ويقول:

بلدي رؤوس كلّه: أرأيت مزرعة البصل؟

ويقول:

شمعتي بالرغم من مقراضها، كلّ آن ولها رأس جديد. . .
شمعة طاف بها الجمّ الغفير تتلالا بابتهاج وارتياح
تتهادى من ضرير لضرير قضوا العمر عثاراً ونطاح. . .

* * *

أقام الشرقي شطراً من حياته في الريف ورأى نصب الفلاح وعناءه ورثى لبؤسه وشقائه فقال:

أتراني بين القرى والضواحي طفت ظهراً وفي يدي مصباحي
إن تفتّش عن ارتياح بلادٍ فتفقد شؤونها في الضواحي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مـا لهذا الفلّاح في الأرض روح، … أهـو مـن معشر بـلا أرواح؟
هـو في جنّة ينـال عـذابـاً … وهـو تحت الأشجـار أجـرد ضـاحِ
وقـرى النمل، لهف نفسي، أثـرى … مـن قـراه إلاّ مـن الأتـراح...
ربّ قصر من فـوق دجلـة كـالطّـا(م) … ووس للـزهـو نـاشر بجنـاح
لـو كشفنـا أطبـاقـه عن أسـاس … لـوجـدنـاه منجل الفـلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال:

لهْفي لخمسين مـن سنّي قـد انـدرست … في الكُتْب بحثـاً كـأني دودة الكتـب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال:

ليتني كنت في الـريـاض شقيقـاً … لـوورود بـدون عقـل ولـبّ

وقال:

انني قـد غـدوت أنعم في الشـكّ … لأنّي منغّـص بـاليقين

وقال:

وبلـوى البشر المكّـار … أن يمعـن في الفكـر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال:

في رمـال التـاريخ آثـار أقـدام … رفـاق تخطّـت التـاريخا
نفخـت في الجراب دهـراً وولّـت … فـورثنـا جـرابها المنفـوخـا
وإذا بي مـا بين أجـربـة تمشي … على الأرض سـادةً وشيـوخـا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال:

ولا يضيرنـك أن غـدوت أسيراً، … كـم طليق يكـابـد التنكيـدا
قفـص من جـريـدة النخـل خير … من ريـاض عن طيرهـا لن تـذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال:

بلّـدتنـا صنـاعـة اللحن في القـول … فغّـرد لنـا بلحـن السّليقـه

وقال أيضاً:

إن تكن قـد سجنت، يـا طير، جسماً … فأنـا قـد سجنت روحـاً وجسما

وقال:

إن يكـن قلبـك المولّع بلـواك … فـإنّي بلـواي قلـب وراس

وقال:

وهـذا قلبي المغلـق … مـن يفتـح أبـوابـه؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال من فرط الوجد والألم :

عسى أن ترقص الدنيا ، ولو رقصة مذبوح !

وأساء الظن في المجتمع فقال :

لست أخشى عليك من سارق قط ولكن خوفي من الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء ، فهو يقول :

ذممت التعصّب من قبل ذا وها أنا في ذمّه لا هج
دعونا نوسّع آفاقنا ليقبلنا المزج والمازج
أقول ، وقد سألتني الرفاق : أأنت على وضعنا خارج ؟
أبى الثمر الفجّ عن جذعه فصالاً وينفصل الناضج

ويقول :

سبعون معصية قد أتيتها في الخفاء
كانت أبرّ وأزكى من طاعة في رياء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها ، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين .

وأقضّ مضجعه خمول العراق ، فقال :

نطقت بحاجتها الشعوب وأفصحت وأرى عراقي واجماً لا ينطق
وكأنّ هذا الشرق سفر غرائب شرحوا عليه الدارجون وعلّقوا
ختمت صحائفه وجئنا بعدها حتّى كأنّا فيه فصل ملحق

وفي موشّحه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهر في بلاد الرافدين من سقوط عبد الحميد ودك عرشه وغليان الثورة القومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجال . ولقد طالما راودته الأحلام ، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافها نينوى وبابل وأور ، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن ، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور .

ثم ازدحمت الجموع في يوم ذي قار والقادسية ، وارتفعت رايات الرشيد والمأمون ، وهجمت المغول ، وجاءت دولة آل عثمان ، وإذا العين تحلم بدولة عربية ، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب ، واحتفل بدولة الألقاب ، فنعم الغدوّ ونعم المآب .

تألم الشاعر لحال بلاده فقال :

لم يبقَ وجه بشوش في الكوخ أوفي الخصاص

وقال :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في جـــانِبَيْ قطـــري زيـت يفـــور فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال:

ليـس تجديك سكتـــــة الأفـــواه حين نمسي بثـــورة في الصـــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول:

شـــاعـــر خـــاشع يحسّ بما في النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع
رجّـف الصـــوت بـــالحنين وأصغـى لـــــــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضـل. إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة. لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل، سـافـرت للاستشفـاء في لندن، ثم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول: ليـس لي شيء من المتاع، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة... ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب، قلتُ: أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي: بل عـد الآن، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت: لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك. ثمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً، أنيس المحضر، لا يـأنف، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً، أن يتحـدث عمّا لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة.

وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شابّ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم: ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس .

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم .

ومضى اسبوع أو اسبوعان ، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له : هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال : قبضت ثلاثين ليرة ، وحقك محفوظ فيها . ولكن حدثني ما القصة ، وما شأنك في الأمر؟

قال : انني نازل في مضارب الشيخ . . . رئيس عشيرة . . وقد أدركته الوفاة ، فاستدعاني وقال لي : أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة ، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البّر ، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت : أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة) . وأوصى الشيخ ، ثم قضى نحبه .

وأتم الصديق حديثه قائلاً : وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم ، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب ، وسألوا عن مقام علي الشرقي ، فقلت : اسألوا عنه في النجف الأشرف . وأرسلوا أحدهم إلى النجف ، فكان ما رأيت وسمعت!

قال علي الشرقي : بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله .

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة ، تلك البلدة التي كما قال :

فيها مفاتيح لأبواب ... الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي ... بالسّالكين إلى حقائق
ملأى بكل طريفة ... من كلّ معجزة وخارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق ، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية . ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر ، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها ، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد . . . وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته ، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته . وقد قال :

فصح الشعور به ، ولم أكُ شاكياً ... إلاّ لكوني شاعراً وفصيحا
في النفس أشياء ، فهل من موضع ... حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحا؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هـذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخـر. لقد تتلمـذت على منبر ذاك وتـوسطت حلقـة هـذا، وأغـرب مـا أدهشني وحـدة الجوهـر واختـلاف الأسلوب. الضجـة التي سمعها المعّري في الـلاذقيّة، وان الاصـوات التي كانت مرتفعة في أروقـة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرنـاطة واشبيلية، وما كـان يتصاعـد من أبواق دراويش المتصـوّفة ومن قعقعـة السيوف الخشبيـة التي يتكىء عليها خطباء الجمعـة، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الـدنيا المريضة، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي. وكـذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكـوام من المؤلفـات والمحـاضرات والمجلات والجرائد ومكـاتب السيـاسيين ومنـابـر البرلمانات وصفـوف الجامعات وأنباء المراسلين، وكلّ مـا سجّلته الأقلام ورتبتـه حروف المطـابع، تلك الأقلام وتلك المطـابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ. فقـد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيـا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثـاني أساليب تتبـدل وظواهـر تتطوّر، ولكـن كلّ ما جـاءت به عـلاج مسكّن وليس بالشافي.

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً. وهـذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّـونة مولوتوف(*)، بل هذي وتلك طـردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم. . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعـال في حياته الشخصية والأدبية، وقد أثـر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئـة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً. ولـذلك نرى شعره يختلف اختلافـاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين.

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثـار على بيئته الجامدة ووجد نفسـه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطـلاق ويرنو إلى آفـاق بعيدة خارج مجتمعـه. وهو يحمل على رجـال الدين المتـزمتين ويداعب الأفكـار الحرّة الجديـدة التي انبعثت من النهضـة الفكريـة في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلـة وعدم معرفته باللغات الغربية. وقد جاء نثـره وشعره متماوجين بين القديم والحديـث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيتـه القلقة المضطربة.

(*) صمونة مولوتوف (او قنبلة مولوتوف، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذٍ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفياً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده. عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته. أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلوّن بلون الإناء، فلما جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الامير عبد الاله ونوري السعيد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبرم من الاوضاع السائدة، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الراضين بالتضحية وتحمّل المشاق، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يا رامي الشجر العالي بأكرته، هلاّ تعلّمت أخلاقاً من الشّجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل وإنه دائماً يرميك بالثمر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع، وذي العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة جوفاء ليس بها قلب ولا كبد
صدور أندية في جهلها انتفخت حتى تشابه فيها الهرّ والأسد

وصحّ فيه قوله:

يا بلاداً تجهّمت بظلام ألمصابيح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنيك قد كنت ولكن لا أريد أرفع صوتي

وكان المسالم الذي قال:

ما لدار السلام أضحت برغمي تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قرون الطين وتغزو الأمجاد بالأقزام

* * *

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري، أنا أدري.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد ، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي ، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت ، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب ، وليسوا كفّاراً ، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله ، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيما هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطـــة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لـــه : أنت علي الشرقي القـــادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقّر الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة ، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفسـه ، فقال المفـوض : هـذا صحيح ، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكن العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب ، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر ، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .